السنة: 2020 المجلد: 05 العدد: 02 ص ص: 251 - 269
EISSN 2676-1645 ISSN 2543-375X

الرأي العام الالكتروني وحرية الرأي والتعبير في المجال الافتراضي

E-Public opinion and freedom of expression in the virtual sphere

نورين عشاش[1]، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، الجزائر
nourine.achache@laposte.net
محمد بشير، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، الجزائر
bachiru13@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/10/29 تاريخ القبول: 2019/12/02

ملخص:

تعد حرية الرأي والتعبير من أكثر القضايا التي نالت اهتمام الباحثين في عدّة مجالات معرفية، لاسيما في الإعلام والاتصال والقانون والسياسة، باعتبارها حقّا من حقوق الإنسان الأساسية.

وقد ساهمت تكنولوجيا الإعلام والاتصال في ميلاد صيغة جديدة من حرية الرّأي والتعبير تمارس في المجال الافتراضي، من خلال مواقع التواصل الاجتماعي عبر شبكة الانترنت، بعدما كانت تمارس في صيغتها التقليدية عبر الواقع من خلال التجمعات وما تعكسه الكتابات الصحفية.

وقد ساهمت هذه الصيغة الجديدة من حرية الرأي والتعبير - دون رقابة - في تكوين آراء المستخدمين لمواقع الشبكات الاجتماعية حول عدة قضايا في المجتمع، ما ساعد على تشكيل رأي إلكتروني حولها.

بناء على ما سبق، تحاول هذه المقالة استعراض عملية تكوين الرأي العام، وأهم القضايا في واقع المجتمع الجزائري التي تم تشكيل رأي عام إلكتروني حولها عبر الشبكات الاجتماعية.

[1] -المؤلف المراسل

الكلمات المفتاحية: الرّأي العام – الرّأي العام الالكتروني – حرية الرّأي والتعبير – المجال الافتراضي – الشّبكات الاجتماعية.

Abstract:

The freedom of opinion and expression are considered as the most important issues that gained the attention of researchers in several fields of knowledge, especially in media, communication, law and politics as basics of human rights.

Information and communication technology Contributed in generating a new version of "freedom of opinion and expression" practised in the virtual world through social networking sites on the Internet, after it had been practised in the traditional form over reality through gatherings and what was reflected in journalistic writings.

This new version of the freedom of opinion and expression have contributed - without supervision - in the formation of the views of the users of social networking sites on several issues in the community, helping to form "an electronic public opinion" around.

This article attempts to review the process of formation of public opinion, and the most important issues in the reality of the Algerian society, which were formed in the opinion of mail around through social networks.

Keywords: Public opinion, E- public opinion, Freedom of expression, virtual sphere, Social networks.

مقدمة:

تعدّ حرية الرّأي والتعبير من أهم المحاور الكبرى التي تشغل بال الباحثين والمنظّرين، ولإن ارتبط المفهوم بعدّة ميادين معرفية، فإنّه أشدّ ما يكون ارتباطا بميدان علوم الإعلام والاتصال، وذلك لتطوّر أشكال حرية الرّأي والتعبير بتطوّر الأنماط الإعلامية عبر الزمن، كما تشهد البيئة الأكاديمية في وقتنا المعاصر ميلاد مفهوم "الإعلام الجديد"، الذي يرتكز أساسا على مواقع الشبكات الاجتماعية عبر الشبكة العنكبوتية، بفضل تطور تكنولوجيات الاتصال ووسائطها - رغم ما قد يثار حول مشروعية هذا المصطلح -، في مقابل

"الإعلام التقليدي" الذي يرتكز أساسا على وسائل الإعلام الجماهيرية كالتلفزيون والإذاعة والجرائد والمجلات وغيرها، وعبر كل نمط إعلامي يتمظهر مفهوم "حرية الرأي والتعبير"، لكن تختلف تجلياته بينهما، ولعلّ قضية "الرّأي العام الالكتروني" الذي يتم تشكيله عبر فضاءات التواصل الاجتماعي أحد هذه الأشكال الجديدة من صيغ التعبير عن الرأي العام في مجتمع من المجتمعات حول قضية تطرح نفسها فيه بإلحاح، وتكون محل اهتمام واسع من طرف المستخدمين.

إنّ معاناة كثير من الناس من دكتاتورية الإعلام والاتصال كما أشار إلى ذلك الباحث حسين علي إبراهيم الفلاحي، أحد أهم الأسباب التي تدفع بالمستخدمين للتعبير عن آرائهم في الفضاء الالكتروني، هروبا من واقع لا يجدون فيه حقهم في الإعلام، "وتعود أسباب هذا إلى عوامل عديدة، منها ما يتعلق بالبنية الأساسية للإعلام والاتصال في تلك الأرجاء، والتي تجعله يتدفق رأسيا من أعلى إلى أسفل... ومنها أيضا ما يتعلق بعدم كفاية قنوات وأدوات ووسائل الإعلام، بمعنى افتقاد التنوع وحرية الاختيار" (الفلاحي، 2014، 110) مما جعل الانترنت وما تتيحه من فضاءات للتعبير الحر عن الرأي والفكر تجاه مختلف القضايا، ملجأ يعمد إليه الأفراد للتعبير عن مكنوناتهم وآرائهم الخاصة، تجاه مختلف القضايا التي يدور حولها نقاش واسع في المجتمع.

أولا- مفاهيم أساسية:

1 - الرأي العام:

يعتبر مفهوم "الرأي العام" من بين عديد المفاهيم التي نالت حظا وافرا من الدراسات العلمية والأكاديمية من جهة، كما نال المفهوم كظاهرة مجتمعية اهتمام الأنظمة السياسية وصناع القرار فيها، التي تريد معرفة ما تفكر به شعوبها إزاء قضية من القضايا من جهة أخرى.

"والرأي العام في الأصل مصطلح غربي تم استخدامه من قبل الأنظمة السياسية الغربية الديمقراطية، التي كان لديها ولع كبير بالتحدث عن الرأي العام، لتؤكد أن حكوماتها معبرة عن رأي الناس لا عن رأيها هي" (كنعان،

2015، 35) تجاه مختلف القضايا التي تقع في المجتمع، "حيث ظهر هذا المفهوم العام لأول مرّة إبان الثورة الفرنسية على لسان وزير الخارجية الفرنسي، الذي استخدمها للتعبير عن اتجاهات المستثمرين، ثم استخدمها المثقفون ورجال السياسة بعد ذلك على اعتبار أنها قوة مؤثرة في المجتمع" (مهنا، 2009، 200)، لا يستهان بها، "وفي سنة 1937 ظهرت أول مجلة فصلية في الرأي العام في الولايات المتحدة الأمريكية، وأنشئ في العام نفسه عدة معاهد لقياس الرأي العام، كان أهمها معهد جالوب الأمريكي" (سكري، 2012، 20)، الذي يعتبر أشهر وأعرق مركز استطلاعات الرأي العام على المستوى الدولي، ثم توالى بعد ذلك ظهور مراكز وطنية في بلدان كثيرة لقياس الرأي العام، وانتشر تدريسه كمادة علمية أو كتخصص علمي مستقل بذاته في أقسام الإعلام في الجامعات العالمية.

إن فكرة الرأي العام لم تظهر من فراغ، وإنما سبق ظهور المفهوم محاولات كثيرة واجتهادات فكرية لمفكرين بارزين أسهموا بنظرياتهم العلمية في ذلك، حيث "لعبت نظرية الإرادة العامة عند روسو إلى جانب فلسفات لوك ومنسكييه وفولتير دورا كبيرا في إنضاج فكرة الرأي العام" (إسماعيل، 2008، 65)، من خلال كتاباتهم المبكرة حوله، "وبحلول عام 1870 كان الكتاب الفرنسيون يتوسعون في استخدام الرأي العام، للإشارة إلى ظاهرة سياسية وليس ظاهرة اجتماعية مقترنة غالبا بالإرادة العامة والروح العامة والضمير العام" (مجاهد، 2007، 16-17)، ويعكس هذا التطور في مفهوم الرأي العام من المعنى الاجتماعي إلى المعنى السياسي، الأهمية الكبيرة التي صار يكتسيها في مختلف المجالات في الواقع، وخاصة منها ذات البعد الاجتماعي والسياسي الوطني التي تنال أكبر قدر من الاهتمام الجماهيري، وعن هذه العلاقة المتداخلة والمتبادلة بين الرأي العام والسياسة يقول وصال نجيب العزاوي: "يظهر تأثير الرأي العام على السياسة العامة بطريقتين في الأقل، أولا: ما يمكن أن يضعه الرأي العام من حدود على القرارات الحكومية وعلى صنع السياسة. ثانيا: تتمثل في إحجام المسؤولين عادة عن اتخاذ موقف أو قرار من المتوقع أن

يواجه بمعارضة شعبية قوية" (خليل، 2013، 431-432)، لذلك أحيانا تلجأ بعض الأنظمة في دول العالم الثالث إلى إطلاق بعض الشائعات بخصوص بعض القرارات المرتقبة التي تنوي إصدارها مستقبلا، لتقيس مدى رضا الناس عنها وردود أفعالهم حيالها، وبناء على تلك الاستجابات والردود تتخذ قراراتها النهائية التي تكون محل قبول من طرف الشعب حينها.

وبالرجوع إلى مفهوم الرأي العام، فإن أكثر المفاهيم تداولا بين الباحثين– ولو مع وجود فوارق بسيطة فيما بينهم – تلك التي تعرفه بأنه: "الرأي السائد بين أغلبية الشعب الواعية بالنسبة لموضوع أو أكثر يمس هذه الأغلبية مسا مباشرا أو يشغل بالها، ويحتدم فيه الجدل والنقاش في فترة معينة، ولا يقلل في أهمية هذا الرأي وجود آراء مخالفة لبعض الفئات ذات المصالح المغايرة لمصالح الأغلبية" (اللحام، 2007، 60)، لذلك قلّما نجد رأيا عاما يتوافق عليه جميع أفراد الشعب دون استثناء، لأن الأفراد يختلفون فيما بينهم من حيث مستوى التفكير وطريقته، ولكل واحد فيهم رأيا ليس بالضرورة يكون متوافقا مع غيره من الآراء، لذلك ومثلما أنه "يمكن أن ينشأ في أول أمره عفويا نتيجة لواقع ما أو مشكلة ضاغطة، فإنه من الممكن أن يصنع صناعة لكنه لا يكون في هذه الحالة حقيقيا، بل مرتبطا ومتقيدا ومعبرا عن توجهات صُنّاعه" (كنعان، 27)، مثلما تسعى إليه مختلف الوسائل الإعلامية وفق أجندتها أو السلطة السياسية بناء على توجهاتها، وهذه أحد أوجه النقد التي طالت الاستطلاعات من طرف من يشككون في مصداقيتها، وفي تعبيرها الفعلي عن أفكار الناس نحو موضوع معين.

"ومما تجدر الإشارة إليه، أن البعض يطلق على الرأي العام اسم صوت الشعب أو الإرادة الجماهيرية أو موقف الرعية أو السواد الأعظم أو أغلبية الناس أو أكثرية الناس، ولا تطابق بين هذه المفردات لكنها تشير إلى جانب من مفهوم الرأي العام" (كنعان، 189)، باعتبار أن الرأي العام يعتبر إطارا جامعا لكل المفاهيم السابقة ويحمل في معناه كل ما ذكر منها باعتباره الوعاء الذي يضمها جميعا، لكن في المقابل هناك أصوات أخرى رافضة تماما لهذا

المصطلح من أساسه خاصة عندما يتعلق الأمر بعملية إسقاطه على واقع منطقتنا العربية، ويتصدر هؤلاء المنظر الجزائري البروفيسور عزي عبد الرحمن صاحب نظرية الحتمية القيمية في الإعلام، إذ يرى أن المصطلح المناسب لبيئتنا العربية هو (المخيال الإعلامي)، وله في ذلك حجج يستند إليها في تبرير موقفه، أهمها غياب الديمقراطية ومجال حرية الرأي والتعبير الذي نشأ في ظله مفهوم الرأي العام في الغرب، وبالتالي لا يمكن تمرير المصطلح وإسقاطه في بيئة أخرى مخالفة تماما للبيئة التي نشأ فيها، وهناك باحثين آخرين تبنوا أيضا أطروحة عزي.

ومهما اختلفت تلك التسميات بين الباحثين والمنظرين كما سبق بيانه، فإن الأمر استقر في وقتنا المعاصر على مصطلح الرأي العام، وبعيدا عن هذا الخلاف في المسميات، يظهر خلاف آخر مرتبطا أساسا بالكيفية المثلى للتأثير المباشر في الرأي العام، إذ "يرى بعض الباحثين أن التأثير على الرأي العام يأتي عن طريق التركيز على الجماهير العريضة، بينما يرى آخرون أن هذا التأثير يأتي عن طريق التركيز على قادة الرأي والنخبة الحاكمة" (بدر، 2010، 22-23)، بينما يعتقد باحثون آخرون أن عملية التأثير في الرأي العام إنما تختلف طرقه من مجتمع لآخر، إذ الأصل أن يتم معرفة طبيعة ذلك المجتمع والكيفية المثلى للتأثير فيه، فليست كل المجتمعات في هذا سواء، وذلك لارتباط عملية تشكيل الرأي العام بمتغيرات عديدة أهمها طبيعة النظم السياسية والإعلامية والاجتماعية السائدة فيها.

2 - الرأي العام الالكتروني:

تعددت التعريفات التي تناولت مفهوم الرأي العام باعتباره مفهوما واسعا وشاملا، غير أنه وبظهور النمط الافتراضي منه، كان لزاما على الباحثين تقديم تعريفات مناسبة له، رغم ما شاب البعض منها من غموض في الطرح واختلاف في تحديد ماهيته، باعتبار "الرأي العام الالكتروني" ظاهرة لم تكن موجودة من قبل، وإنما ارتبط ظهورها كنتيجة لظهور الفضاء العام الافتراضي، وتطور وسائل وتكنولوجيات الاتصال.

ومن بين تلك التعريفات لمفهوم الرأي العام الالكتروني، نرصد ما يلي (عامر، 2012، 164-165):

"ذلك الرأي الذي يعبر عن أكبر شريحة ممكنة من الجماهير – داخل القطر الواحد أو خارجه – في هذا الفضاء الواسع على الشبكة العنكبوتية المعروفة بالانترنت، والتأثير على أكبر شريحة يمكن الوصول إليها من خلال هذه الشبكة".

"كل رأي أو فكرة يشارك فيها عدد كبير من الأفراد – لا يقل العدد عن نصف مليون – عبر العالم المتخيل عالم الانترنت، يؤمنون بها ويسعون إلى تحقيقها على أرض الواقع، لتصل إلى نتيجة سياسية عامة، يتم توصيلها كرسالة اتصالية من خلال تلك الشبكة (الانترنت)".

وتعليقا على ما ورد في هذين التعريفين، نرصد بعض خصائص الرأي العام الالكتروني:

أ - يعبر الرأي العام الالكتروني عن شريحة كبيرة من الناس تجتمع على رأي واحد بخصوص قضية معينة يدور حولها الجدل والنقاش.

ب - تختلف القضايا التي يدور حولها الرأي العام وتتعدد، ما بين قضايا اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو رياضية أو غيرها.

ت - يكون التعبير عن الرأي في مختلف المواضيع التي تثير اهتمام الناس في سياقات إلكترونية، وعبر فضاءات افتراضية من خلال شبكة الانترنت تحديدا، كالمنتديات والمجموعات الفايسبوكية وساحات الحوار والمدونات الالكترونية وغيرها من مواقع الشبكات الاجتماعية.

ث - قد يكون الرأي العام الالكتروني مبنيا داخل المجال الجغرافي للدولة وأحيانا خارجها، على حسب الأهمية التي يكتسيها كل موضوع، فقضية اختطاف الأطفال قد تبدو موضوعا يثير الرأي العام في داخل الجزائر أكثر من غيرها، بينما قضية الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للرسول صلى الله عليه وسلم، تثير الرأي العام داخل الوطن وخارجه في كل دول العالم الإسلامي.

ج - الـرأي العـام الالكتروني مـرتبط فقـط بالمسـتخدمين للشـبكة العنكبوتية، الذين يعبرون فيها عن آرائهم ومواقفهم المؤيدة أو الرافضة لقضية أو قانون أو قرار ما.

ح - يسعى الرأي العام الالكتروني إلى تجسيد الآراء والتوجهات التي تم التوافق عليها إلكترونيا إلى أرض الواقع، فلا فائدة من تشكيل رأي عام تبقى توجهاته حبيسة فضاء افتراضي، ولا يتم تجسيدها في الميدان، فقيام ما أطلق عليها (ثورات الربيع العربي) وخاصة منها في تونس ومصر، إنما كانت شرارتها الأولى تطبخ في المجال الافتراضي العام، حيث "لعبت الوسائل الاتصالية الجديدة (السلطة الخامسة) ومنها الفيس- بوك، التويتر، اليوتيوب، (الشبكات الاجتماعية) دورا لا يستهان به في نجاح هاتين الثورتين" (سكري، 88)، بل إن كثيرا من منظمي الاحتجاجات التي وقعت في الدول الغربية استعانوا بمواقع الشبكات الاجتماعية من اجل تنظيم صفوفهم والدعوة إلى التظاهر والاحتجاج ضد حكوماتهم، مثلما تم في مظاهرات "السترات الصفر" في باريس في نوفمبر 2018.

خ - يسعى الرأي العام الإلكتروني إلى التأثير في أكبر عدد ممكن من المستخدمين لشبكة الانترنت، حتى تتسع دائرة من يتبنون الرأي ذاته.

د - بالرغم من أن الرأي العام يضم في ما معناه أعدادا كبيرة من أفراد المجتمع المعنيين بالقضية محور النقاش، إلا أن الكثير من الباحثين لا يستسيغون وضع رقم معين لأعداد المستخدمين الذين يتبنون رأيا مشتركا، حتى يمكن وصفهم بأنهم يشكلون رأيا عاما حول قضية معينة، لأن الرأي العام أشمل من أن يتم اختزاله في رقم محدد، لذلك فاعتبار نصف مليون مستخدم دليلا على قيام رأي عام إلكتروني، لاقى معارضة من طرف البعض، إذ من الصعب حصر عدد المشاركين الذين يتبنون موقفا أو رأيا معينا في بيئة إلكترونية مترامية الأطراف.

ذ - وجود رأي عام إلكتروني حول قضية ما، لا ينفي أبدا وجود آراء أخرى مخالفة له.

3 - حرية الرأي والتعبير الالكترونيين:

تعتبر حرية الرأي والتعبير من أهم الحقوق اللصيقة بالإنسان التي كفلتها له الاتفاقيات والمواثيق الدولية، ونصت عليها مواد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ولا يخل أي دستور في أي دولة -تقريبا- من الإشارة إلى هذا الحق المقدس، لكن عملية قياس مدى تمتع الناس فعلا بهذه الحرية في دول العالم الثالث عموما ومن بينها الجزائر قد تظهر نتائج مخيبة، إذ تخضع هذه الحرية إلى مزاج السلطة الحاكمة في كل دولة، عبر تضييق مساحات التعبير عن الرأي لأفراد الشعب حول قضاياهم المعيشية والسياسية، ما يجعل فضاءات التعبير عن الرأي في الفضاء العمومي تتضاءل بشكل متفاوت.

"عندما تتحدث الدساتير أو الدستوريين عن حرية الرأي لا يعنون التصور الداخلي وإنما يعنون بالذات التعبير عنه، ولذلك تعرف حرية الرأي أحيانا بأنها قدرة الشخص على التعبير عن آرائه ونقل أفكاره للناس بشخصه أو برسائله، أو بغير ذلك من وسائل نقل الآراء ونشرها والدعوة لها (الضلاعين وآخرون، 2015، 81)، سواء كان ذلك عبر وسائط تقليدية كوسائل النشر أو البث المعروفة من صحف ومجلات وبيانات، أو من خلال الإذاعة والتلفزيون، أو عبر وسائط إلكترونية أو في شبكة الانترنت، في ما يوصف "بالتعبير الالكتروني عن الرأي"، وهو من المفاهيم المستحدثة التي نشأت في عصر تطورت فيه تكنولوجيات الإعلام والاتصال والإعلام الجديد، وانتشرت ساحات الحوار والمناقشات الافتراضية عبر مواقع الشبكات الاجتماعية كالفيسبوك وتويتر.

لقد صار ممكنا لأي مستخدم لشبكة الانترنت إبداء رأيه صراحة دونما حرج أو خوف في مختلف المواضيع، حتى تلك التي كان إبداء الرأي فيها بطريقة تقليدية في الفضاءات العمومية أقرب إلى المحال، فالتفاعلية الالكترونية جعلت من المواطنين صحفيين "ينتجون" الأخبار ويبدون الآراء ويعلقون على الأحداث، وصارت مساحة التعبير أوسع بكثير في ظل اختفاء الرقابة القبلية التقليدية إلا في بعض الحالات (أنظر التعليق رقم 1)، إذ "يمكن للانترنت كونها شبكة الشبكات العالمية (Network of Networks) أن

تمكّن الناس من تبليغ وتثقيف أنفسهم والتعبير عن آرائهم، والمشاركة في المجتمع المدني والعمليات الديمقراطية إلى حد لم يكن ممكنا من قبل" (وليم هـ داتن وآخرون، 2013، 11)، وبصورة غير مسبوقة.

ورغم كل هذه المحاسن التي أتاحتها تكنولوجيات الاتصال في مجال حرية الرأي والتعبير الإلكترونيين، إلا أنه في المقابل لا يمكن التغاضي عن الكثير من المساوئ التي تحدثها الطفرة الكبيرة لها والمجال الواسع لإبداء الرأي فيها، خاصة في المجتمعات التي لا تحسن التعامل مع هذه الحرية المطلقة لإبداء الآراء، فالكثير من الدول العربية التي تعيش على وقع أزمات ما بعد "الربيع العربي"، إنما حصدت نتائج حرية رأي وتعبير إلكترونية دفعت بالجماهير إلى "الثورة" ضد أنظمة حكمها، وإن كان في المقابل توعية الجماهير بحقوقها والمطالبة بها بطرق أبعد ما تكون عن العنف وتداعياته المدمرة أحسن بكثير، مثلما يعرفه الحراك الجزائري من سلمية مطلقة أدهشت العالم رغم مرور عدة أشهر عليه.

قد شكل الاهتمام بحرية الرأي والتعبير على شبكة الانترنت محور اهتمام عديد الهيئات والمنظمات الدولية التي تعنى بتعزيز وترقية حقوق الإنسان، وعلى هذا الأساس صدرت عدة قرارات في هذا الشأن تدعو إلى ضمان تمكين الأفراد من حرية الرأي والتعبير في المجال الافتراضي، فقد أكد – على سبيل المثال - "القرار A/HRC/REC/20/8 الذي اعتمده مجلس حقوق الإنسان في 16 تموز/ يوليو (جويلية) 2012، تأكيده بشأن تعزيز التمتع بحقوق الإنسان على شبكة الانترنت وحمايتها، فإنه يتعين على الحقوق نفسها التي يتمتع بها الناس خارج نطاق شبكة الانترنت، أن تحترم ضمن نطاق شبكة الانترنت، وبخاصة حرية التعبير" (منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، 2013، 08)، لكن للأسف تبقى هذه القرارات مجرد توصيات تتم تلاوتها أمام ممثلي الدول في المجلس، مادام أن قراراته غير ملزمة للدول الأعضاء.

إن قمع حرية الرأي والتعبير لدى الناس، وعدم الاهتمام بمطالبهم وانشغالاتهم اليومية، والملاحقات القضائية التي يتعرض لها البعض بسبب إبداء

الـرأي، والتضـييق علـيهم وإتهـامهم بالعمالـة للخـارج، وغيرهـا مـن الإتهامـات الجاهزة، إنما هي أحد أهم الأسباب التي تدفع بالمستخدمين إلى التنفيس عن أنفسهم وإبداء آرائهم والتعبير عنها بشكل غير محدود عبر العالم الافتراضي ومواقع الشبكات الاجتماعية، في ظل غياب ديمقراطية الإعلام والاتصال في أغلب البلدان العربية، إذ "تمثل ديمقراطية الإعلام والاتصال مظهرا بارزا من المظاهر المتعددة الأوجه للديمقراطية في إطارها العام والشامل، وهي تشكل في الوقت ذاته جزء حيويا وهاما من هذه الديمقراطية"، (الفلاحي، 103-104)، لدرجة أن غياب هذه الأخيرة يقتضي بالضرورة غياب الأولى لارتباطهما ببعضهما البعض أيما ارتباط.

لذلك فإن "انحسار محيط الحرية في الواقع الفعلي جعل من الفضاء الالكتروني واقعا بديلا، تحول مع وجود الشبكات الاجتماعية من كونه واقعا افتراضيا إلى واقع حقيقي، خاصة في ظل الافتراضات الأساسية التي قام عليها الفضاء الإلكتروني من حيث التفاعل كنتيجة أساسية للتجانس في الاهتمامات والميول والاتجاهات" (مالكي وكادي، 2013، 67)، وهذا ما يستغله الأفراد والمستخدمون عموما في طرح مواقفهم وآرائهم نحو مختلف القضايا التي تهم مجتمعهم، وكذا الترويج لأفكارهم وتسويقها في الفضاء الالكتروني عبر مواقع الشبكات الاجتماعية التي تحظى بنسبة استخدام مرتفعة في أوساط الشباب خاصة.

إن للأفراد جميعا دون استثناء الحق في إبداء آرائهم والتعبير عنها بكل حرية في شبكة الانترنت، رغم بعض أنواع الرقابة المسلطة على مواقع بعينها والتي تحظى بإقبال جماهيري كبير، لذلك ينبغي إيجاد بيئة حاضنة لحرية الرأي، لأن وجود مساحة كافية لحرية الأفراد في إبداء آرائهم والتعبير عنها يعد ضمانة أساسية لتحقيق أحد أهم حقوق الإنسان الأساسية، وحتى نصل إلى هذا المستوى من الحرية ينبغي توفير بيئة ملائمة لحرية الصحافة أولا.

ثانيا - أهمية الرأي العام الالكتروني:

يكتسي الرأي العام أهمية كبيرة باعتباره أحد أهمّ المدخلات الأساسية للنظام السياسي في الدول التي تحترم آراء شعوبها، إذ لا تقدم بعض الدول على اتخاذ أي قرار يمس حياة أو معيشة المواطنين فيها، إلا بعد أن تأخذ رأيهم فيه، بل أحيانا يصل الحد إلى أخذ آراء الناس في قضايا متعلقة بالسياسة الخارجية، كعمليات التدخل العسكري في دول أخرى تشهد نزاعات أو اضطرابات أمنية، أو كما شهدته بريطانيا لما اتخذت قرار الخروج من الاتحاد الأوروبي بعد الأخذ برأي الشعب في ذلك.

ولا تختلف أهمية الرأي العام الإلكتروني عن أهميته في الواقع، غير أن الأول قد يكون أكثر وضوحا وتعبيرا عن الرأي منه في الواقع - خاصة في دول العالم الثالث -، لأن المستخدمين حين يعبرون عن آرائهم نحو مختلف القضايا فإنهم لا يخشون تبعات آرائهم مهما كانت شدة معارضتها، مادام بإمكان المستخدم التعبير عن رأيه بهوية غير حقيقية.

إن "أوّل ما يطرحه استخدام التقنيات الحديثة في طريق التغيير والتعبير والتأثير في الرأي العام أنها ببساطة مجرد وسيلة مهما بلغ شأنها ونمت فعاليتها، فهذه الفعالية مشروطة بمفعولها الواقعي ما بين طرفين هما الجهة التي تستخدمها والجهة المستهدفة" (عامر، 185)، فقوة الرأي العام الالكتروني تكمن في تجسيد ما اتفقت عليه آراء الناس في الواقع لا أن يبقى مجرد حديث افتراضي يتم تداوله في المواقع الالكترونية والمنتديات وساحات النقاش لا غير، ومع ذلك فقد "استطاعت الشبكات الاجتماعية أن تلعب دور الإعلام البديل بنجاح، وكان دورها بارزا في التوجيه والتأثير على صناعة الرأي العام العربي، وتوفيرها لوسائل سهلة سريعة آمنة من أجل التبادل الحر للمعلومات والآراء، متحدية كل أنواع الرقابة" (عامر، 2012، 66)، التي يمكن أن تعترضها.

"ونتيجة للتقدم التكنولوجي في مجال الاتصال الجماهيري زاد الاهتمام بالرأي العام، حيث يعتبر الرأي العام عاملا هاما يعبر عن مكانة الحرية السياسية في المجتمع، وخاصة في المجتمعات الغربية" (نجم، 2008، 31)،

باعتبار أن حرية الرأي والتعبير في كثير من دول العالم الثالث – بما في ذلك بلداننا العربية وإن بدرجات متفاوتة - تبقى مجرد شعارات تتغنى بها أنظمة الحكم، بينما الواقع يعكس غير ذلك، ولعل هذا ما جعل من الفضاء الالكتروني فرصة مواتية للتعبير الحر عن الرأي والفكر، الذي قد يتحول إلى نوع من المعارضة الإلكترونية تدعو إلى رد فعل عنيف وقوي في الواقع نتيجة التضييق الممارس على الحريات العامة، وتفاديا لمثل هذه المعارضة الشعبية المحتملة، يتم اللجوء أحيانا إلى بث عدد من الإشاعات قصد قياس مدى ردة فعل الشعب نحوها، ليتم بعد ذلك اتخاذ القرار المناسب، الذي لن يكون في موضع رفض من طرفهم حينها.

ثالثا - تأثير الشبكات الاجتماعية في تشكيل الرأي العام الالكتروني:

"إن الرأي العام في أي مجتمع من المجتمعات صورة عاكسة لخصائصه الحضارية والفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولا يمكن لرأي عام أن يتكون دون أن ترتسم عليه مقومات مجتمعه من دين وتقاليد وتجارب وتراث وخرافات، وما يصله من ثقافة الدول الأخرى وحضارتها" (حمليل، 2007، 121)، فكل هذه العناصر تلعب دورا معينا قد يكون أساسيا أو ثانويا في رسم معالم رأي عام إلكتروني نحو قضية بعينها أو مجموعة قضايا مختلفة، عبر مواقع الشبكات الاجتماعية المعروفة.

هذا و"يسجل لهذه المواقع والشبكات كسر احتكار المعلومة، وتشكيل عامل ضغط على الحكومات والمسؤولين، ومن هنا بدأت تتجمع وتتحاور داخل هذه الشبكات بعض التكتلات والأفراد التي تحمل أفكارا ورؤى مختلفة أو متقاربة أو موحدة أحيانا" (الوز، 2012، 69)، حسب كل موضوع أو قضية مطروحة للنقاش، وقد "شهد الفضاء الالكتروني انطلاق العديد من حملات الرأي للضغط في قضايا عامة، ومن ذلك أن حركة 6 نيسان / أبريل الناشطة على الساحة المصرية، هي في الأصل وليدة دعوة إلى الإضراب في هذا اليوم أطلقتها إحدى الفتيات عبر الانترنت" (أحمد وآخرون، 2010، 24)، وقد لاقت رواجا كبيرا من طرف المستخدمين الشباب، الذين أمكن تجنيدهم بسرعة

كبيرة والتجاوب مع دعوات الإضراب في فترة وجيزة قد يصعب تجنيدهم بغيرها، وإن كان الأمر لا يتعلق دائما بمواقع الشبكات الاجتماعية، وإنما بوسائل الإعلام التقليدية كذلك، "فكم من أحداث عظام وأزمات خانقة وقعت دون أن تثير أو تنبه الجمهور، إما بسبب تجاهل وسائل الاتصال الجماهيري لها، أو تقليل أهميتها وتناولها باعتبارها غير ذات مغزى، وكم من أحداث عابرة ومشكلات يسيرة وأزمات معتادة ضخمتها وسائل الاتصال الجماهيري" (الهيتي، 2014، 62)، خدمة لأغراض معينة بهدف تشكيل رأي عام مؤيد أو معارض لهذه القضية أو تلك، مثلما حصل تماما مع قضية مقتل الكاتب الصحفي السعودي جمال خاشقجي في قنصلية بلاده بتركيا في أكتوبر 2018، أين عالجتها عدة قنوات إخبارية عربية بطريقة متناقضة أحيانا تدور بين التهوين والتهويل.

"إن ظهور قضية أو قيام موقف يثير تحدي الجماعة ويفرض مناقشته، يصاحبه عادة دورا تقوم به وسائل الإعلام التي تساهم في تحديد تلك الحادثة أو الموقف واستطلاع الحلول المأمولة بشأنها" (حمليل، 118)، وترافقها في ذلك مختلف أنواع النقاشات التي تجري في الفضاءات العمومية الافتراضية عبر مواقع الشبكات الاجتماعية والمدونات وغيرهما، لما تتيحه من فرصة التقاء آراء المئات أو الآلاف ممن لهم علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالحادثة، حيث "يبدو أن المدونات بدأت تتخذ دورا مهما بشكل متزايد في الرأي العام، ولأنها تقدم محتوى مختلفا بشكل كبير عن الإعلام التقليدي، فمن المحتمل أن تؤثر على الاتجاهات السياسية بنفس الطريقة التي يؤثر بها المعلقون الإذاعيون على المستمعين" (ماكومز وآخرون، 2012، 46)، وربما أكثر مما يتصوره الكثيرون، لامتلاك المدونات ومواقع الشبكات الاجتماعية على بعض الميزات التفاعلية بين المستخدمين، ولطبيعة تلك المواقع في حد ذاتها، التي تعرف تزايدا متسارعا في أعداد المستخدمين لها بما في ذلك الجزائر، وفي دراسة مع طلبة جزائريين حول مدى "مساهمة المدونات الالكترونية في تشكيل الرأي العام،

أجاب المبحوثون بأن المدونات الالكترونية تساهم في تشكيل الرأي العام، فهي تعتبر من أهم وسائل الاتصال على شبكة الانترنت" (حنون، 2015، 129).

"ومع توسع استعمال الإعلام الإلكتروني بدأت نواة الفضاء العمومي الافتراضي تتشكل تدريجيا لتبلغ ذروة التبلور مع توسع استخدام الفايسبوك واليوتيوب بشكل أساسي، مستغلا حالة الكبت الإعلامي الذي يعيشه الفرد الجزائري نتيجة الرقابة المفروضة على وسائل الإعلام التقليدية" (هواري، 2015، 228)، وخاصة منها المملوكة للسلطة، رغم أن الانفتاح على قطاع السمعي البصري قد قلص هامش هذا التضييق، وفتح نافذة للناس من أجل التعبير عن مكنوناتهم واتجاهاتهم نحو ما يعايشونه في واقعهم، رغم أن ذلك الانفتاح التاريخي كان محتّما على السلطة لظروف خارجية بالدرجة الأولى، متعلقة أساسا برياح التغيير التي اجتاحت بلدان "الربيع العربي".

لكن في مقابل هذا الإفراط المؤيد لفكرة التأثير الكبير لمواقع الشبكات الاجتماعية، تظهر نتائج سؤال في إحدى الدراسات العلمية التي درست علاقات التأثير بين منتديات الحوار الالكترونية وعملية تشكيل الرأي العام، أنه "لا تساهم منتديات الحوار الالكترونية الجزائرية في تشكيل الرأي العام الطلابي الجزائري إزاء القضايا المختلفة وذلك بنسبة 92٪، نظرا أن الطلبة لا يثقون في مصداقية المواد الالكترونية، خاصة فيما يتعلق بالمسائل المصيرية، وذلك بنسبة 89٪ كالمجال السياسي مثلا" (سميشي، 2013، 180)، وإن كانت نتائج هذه الدراسة لا يمكن تعميمها بالمطلق على كامل الطلبة الجزائريين، لكنها تعطينا صورة عن عينة من الأفراد الذين لا يتأثرون بالضرورة بما يتم نشره عبر مواقع الشبكات الاجتماعية.

خاتمة:

لقد "أصبحت تتشكل بفضل شبكة الانترنت فضاءات تواصلية عدة هي بمثابة أمكنة افتراضية تتحدث عبر غرف الحوار والدردشة بدون حدود وبدون تاريخ، ونتعامل مع هذه الفضاءات بعدّها أمكنة ذات شحنة ثقافية، يكون الحوار والتواصل أساسها" (جابر، 2015، 315)، وقد فتحت بذلك مواقع

الشبكات الاجتماعية عهدا جديدا من حرية الرأي والتعبير، لم يكن متاحا بهذا القدر الكبير من الحرية اللامحدودة، فغدا أغلب المستخدمين يبدون آراءهم في بعض القضايا الحساسة، التي لم يكن ليعطوا رأيهم فيها بطريقة علنية أخرى، و"رغم أن نشاط هذه الشريحة من الجماهير التي تمثل الرأي العام الالكتروني، ينحصر داخل هذا العالم التخيلي، فالأمر لا يتعدى وسيلة جيدة للتواصل والنقاش وتبادل الآراء... إلا أن الأمر تعدى مؤخرا ذلك الواقع التخيلي، بتحول الشبكة إلى ساحة للفعل المدني والتعبوي في أرض الواقع" (الطائي والجبوري، 2016، 147)، مثلما حصل من تعبئة جماهيرية إلكترونية واسعة وهبة تضامنية كبيرة مع أزمة الشاب الجزائري (العياشي) الذي قضى نحبه قبل مدة داخل بئر إرتوازية في أعماق الأرض لعدة أيام.

إن حرية الرأي والتعبير تعد من حقوق الإنسان الأساسية، وقد غدت مع ظهور مواقع الشبكات الاجتماعية مكرّسة بشدة، لدرجة أنها صارت قادرة على تشكيل رأي عام إلكتروني، يتناقش بكل حرية ووعي في مختلف القضايا التي تشغل باله وفي أي وقت، وعلى هذا الأساس ينبغي الاهتمام بما يلي:

1 - إتاحة الفرصة للأصوات المعارضة لتعبر عن رأيها بكل حرية في مختلف المنابر الإعلامية بما فيها الحكومية.

2 - تفعيل التواصل الحكومي الالكتروني مع الشعب من خلال الاهتمام بمواقع الشبكات الاجتماعية.

3 - الاهتمام بدراسة الرأي العام الإلكتروني الذي يتشكل في صفحات الشبكات الاجتماعية لدراسة اتجاهات الشعب نحو مختلف القضايا المحلية والوطنية.

4 - تفعيل القوانين التي تتماشى وما ينشر في مواقع الشبكات الاجتماعية من أجل الضبط القانوني لها.

التعليق رقم 1:

لا نقصد هنا الاختفاء الكلي للرقابة القبلية، لأنه حتى في ظل شبكة الانترنت تبقى هناك بعض أشكال الرقابة القبلية على المحتويات المنشورة، إذ كثير من المواقع الالكترونية لا تتيح للمستخدم إمكانية النشر أو التعليق الفوري على بعض المواد المنشورة، إلا بعد إطلاع صاحب الموقع على مضمون ذلك النشر أو الرد.

قائمة المراجع:

- أحمد، يوسف أحمد، وآخرون. (2010). كيف يصنع القرار في الأنظمة العربية، تحرير وتنسيق: نيفين مسعد، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

- اسماعيل، فضل الله محمد. (2008). أزمة القرار السياسي في دول العالم الثالث، الاسكندرية: دار الجامعة الجديدة.

- بدر، أحمد. (2010). الرأي العام والسياسة العامة، القاهرة: الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع.

- جابر، نجلاء محمد. (2015). دراسة تحليلية في الإعلام الجماهيري، عمان: دار المعتز للنشر والتوزيع.

- حمليل، رشيد. (2007). الحرب والرأي العام والدعاية، الجزائر: دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع.

- حنون، نزهة (2015). المدونات الالكترونية فضاء لحرية الرأي والتعبير: دراسة ميدانية على عينة من طلبة كلية علوم الإعلام والاتصال والسمعي البصري – جامعة قسنطينة 3. مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية. العدد 44، ص. ص 111 - 132.

- خليل، سحر كامل (2013). السياسة العامة ووسائل مؤسسات المجتمع المدني في صنعها: دراسة نظرية. مجلة كلية التربية للبنات. العدد 02، ص. ص 427 - 439.

- داتن، وليم هـ، وآخرون. (2013). حرية الاتصال حرية التعبير: تغيير البيئة القانونية والتنظيمية الداعمة للانترنت، باريس: منشورات اليونيسكو.

- سكري، رفيق. (2012). الرأي العام بين القوة الناعمة والقوة الخشنة، بيروت: المؤسسة الحديثة للكتاب.

- سميشي، وداد (2013). منتديات الحوار الالكترونية في الجزائر: تميز في تقديم الخدمة العمومية وقدرة على استمالة جمهور الطلبة. مجلة الحكمة للدراسات الإعلامية والاتصالية. العدد 25، ص.ص 165 - 197.

- الضلاعين، نضال فلاح، وآخرون. (2015). الإعلام والرأي العام، عمان: دار الإعصار العلمي للنشر والتوزيع.

- الطائي، يوسف حجيم، والجبوري، علي عبودي نعمه. (2016). الرأي العام والإعلام الحديث: خطط وقياس، عمان: دار الأيام للنشر والتوزيع.

- عامر، فتحي حسين. (2012). الرأي العام الالكتروني، القاهرة: دار النشر للجامعات.

- الفلاحي، حسين علي إبراهيم. (2014). الديمقراطية والإعلام والاتصال، عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع.

- كنعان، علي. (2015). الرأي العام بين النظرية والتطبيق، عمان: دار الأيام للنشر والتوزيع.

- كنعان، علي. (2015). الرأي والرأي الآخر في الإعلام، عمان: دار الأيام للنشر والتوزيع.

- ماكومز، ماكس، وآخرون. (2012). الأخبار والرأي العام: تأثير الإعلام على الحياة المدنية، ترجمة: محمد صفوت حسن أحمد، القاهرة: دار الفجر للنشر والتوزيع.

- مالكي، زوهير وكادي، زين الدين (2013). دور الشبكات الاجتماعية في تكوين الرأي العام في المجتمع العربي. مجلة الصورة والاتصال. العددان 05-06، ص.ص 63 – 70.

- مجاهد، جمال. (2007). الرأي العام وقياسه: الأسس النظرية والمنهجية، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

- مهنا، محمد نصر. (2009). في تنظير الإعلام: الفضائيات العربية - العولمة الإعلامية – المعلوماتية، الاسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

- منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، (2013). التحدث بأمان: ضمان حرية التعبير في جميع وسائل الإعلام، سان خوسيه، كوستاريكا: منشورات اليونيسكو.

- نجم، طه عبد العاطي. (2008). الصحافة والحريات السياسية: دراسة في التوجهات الأيديولوجية، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

- هواري، حمزة (2015). مواقع التواصل الاجتماعي وإشكالية الفضاء العمومي. مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية. العدد 20، ص.ص 221 - 232.

- الهيتي، هيثم هادي نعمان. (2014). الرأي العام بين التحليل والتأثير، عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع.

- الوز، هزوان. (2012). الإعلام أدوار وإمبراطوريات، دمشق: منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب.